

في الألفية الثالثة ☐ المصريون يبحثون عن هوية!!



الاثنين 3 نوفمبر 2025 01:00 م

كتب: عبد الناصر سلامة

عبد الناصر سلامة
رئيس تحرير صحيفة الأهرام الأسبق

الاستغراق الكبير في فرعة الاحتفال بافتتاح المتحف الكبير، أمس السبت، أثار جدلا واسعا في الشارع المصري، وفي أوساط المثقفين بشكل خاص، حول الهوية المصرية، وهو الجدل الذي يتزامن مع أوضاع سياسية إقليمية متوترة، تزيد من حدة وطبيعة الأزمة، المتجددة بتجدد الأحداث المشابهة بين الحين والآخر، والتي كانت في السابق تقتصر على مقال صحفي هنا، أو حديث إذاعي هناك، إلا أن الأمر اختلف الآن باتساع ساحة "السوشيال ميديا" التي سمحت للداني والقاصي بالإدلاء بدلوهم، في هذه القضية الاستثنائية التي لم تعد من الخطوط الحمراء.

ربما كان الشد والجذب حول هذه القضية، التفاعل الأبرز خلال المقاطعة العربية لمصر، في أعقاب اتفاقية كامب ديفيد مع كيان الاحتلال الإسرائيلي، عام 1978، وما سبقها من زيارة الرئيس أنور السادات للقدس المحتلة عام 1977، وسط دعوات باعتبار مصر دولة فرعونية، إلا أن السادات حسمها في خطاب للشعب على الهواء مباشرة قال فيه: "نحن المصريين أصل العرب، إن السيدة هاجر، زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام، هي أم إسماعيل أبي العرب، فإذا كان هناك من يريد الانتساب، فلينتسبوا هم لمصر وليس العكس، دماؤنا عربية، ولا داعي لأي مناقشات عن أصلنا الفرعوني أو ما شابه ذلك". إلا أن الأمر يظل هاجسا يطفو على السطح لسبب أو لآخر ☐

الانزعاج بدا واضحا الآن، في حوارات العربيين كما الإسلاميين، خلال احتفالات افتتاح المتحف، وما سبقها من استعدادات، بدا منها الاهتمام الرسمي الكبير بالهوية الفرعونية المصرية على حساب التاريخ الزاخر، عربيا وإسلاميا، والذي لم يعد مطروحا في هذه المرحلة بشكل خاص، مع توتر العلاقات مع دول عربية وخليجية، في إطار تضارب المصالح تارة، والتنافس القيادي تارة أخرى، ومحاولة العبث بأمن مصر القومي على أكثر من محور تارة ثالثة، وهو الأمر الذي نقل القضية من طابعها الرسمي إلى الطابع الشعبي، الذي يخوض في الآونة الأخيرة سجلات عنيفة على مواقع التواصل الاجتماعي، مع بعض الأشقاء الخليجيين، تصل إلى حد اللاعودة.

العروبيون المصريون يرون في الاهتمام بالحقبة الفرعونية محاولة للانسلاخ من الجسد العربي، في إطار المكايدة السياسية، لا أكثر ولا أقل، وقد تكون حالة مؤقتة، بينما يراها الإسلاميون مخطئا واضح المعالم للنأي بالشخصية المصرية عن الدين والتدين، للاتحاق بما يعرف بالديانة الإبراهيمية، وغيرها من محاولات العلمنة أو التسطيح، خصوصا أنها تزامنت مع سلسلة الموالد السنوية لعدد من أولياء الله الصالحين، وما صاحبها هذا العام من احتفالات صاخبة، تحت رعاية وزير الأوقاف شخصيا، وهي الاحتفالات التي تتضمن جوانب كثيرة من البدع والخرافات التي ينهى عنها الدين، وتقاومها الجماعات السلفية بشكل حاد.

المؤكد هو أن الاهتمام الرسمي في مصر بفعالية افتتاح المتحف؛ يأتي في ظل حالة عامة من الضرر الشعبي، نتيجة عوامل عديدة تتعلق بصعوبة الحالة المعيشية بشكل خاص، وحالة من الأزمات الخارجية، تتعلق خصوصا بالأحداث الأخيرة في السودان، وأزمة سد النهضة الإثيوبي على مجرى النيل، ناهيك من أحداث غزة، والأزمة مع الكيان الصهيوني، وهو ما يحتم على النظام الحاكم في مصر التجهل أمام الداخل والخارج في آن واحد، كلما سنحت الفرصة لذلك، بافتتاح متحف ما، على غرار المتحف الكبير، أو استضافة مؤتمر ما، على غرار مؤتمر شرم الشيخ الأخير بشأن غزة ☐

من هنا، فإن الأمر في حقيقته قد لا يتعلق بفرعة أو علمنة أو أي شيء من هذا القبيل، إلا أنها الظروف التي تفرض نفسها بمثل هذا الشكل أو ذاك، غير أن الرياح قد تأتي في بعض الأحيان بما لا تشتهي السفن، حيث الانتقادات الشعبية الواسعة لعملية الإنفاق على إنشاء المتحف، والتي بلغت نحو ملياري دولار، جميعها من القروض، إضافة للتوسع في الإنفاق على حفل الافتتاح، في دولة يشكو رئيسها

طوال الوقت من الفقر وضيق ذات اليد، في الوقت الذي بدت فيه اعتذارات عدد كبير من قادة العالم، العربي والغربي، عن المشاركة، وهو ما يؤكد أن العلاقات الخارجية في أدنى مستوياتها.

حقيقة الأمر، نحن أمام مخاض عسير لحالة استثنائية، تتعلق بالقومية المصرية والعروبة والإسلام في آن واحد، تتعلق بمستقبل العلاقات مع المحيط الإقليمي والدولي أيضا، تتعلق بتوجهات السياسة المصرية على المدى القريب، إلا أن غرابة الحالة تأتي من كونها تتعلق بمصر (أم الدنيا)، ذات التاريخ المتجذر من آلاف السنين، والحضارات التي يصعب حصرها أو الإلمام بها، مصر التي كانت تقود العالم العربي، أيقونة التحرر في القارة الأفريقية، ها هي تبحث عن هوية، بل وترتبك بين الهويات المختلفة، في ظل متغيرات محيطية كان يجب أن تنصدها الدولة المصرية، بحكم عوامل عديدة، تاريخية وجغرافية وثقافية وبشرية.

أعتقد ان الدولة المصرية تسدد الآن فاتورة الابتعاد عن الساحة الإقليمية عدة عقود، ومحاولة النأي بنفسها عن الأحداث الجارية، وهو ما جعل دويلات من هنا وهناك تسطو على الساحتين العربية والأفريقية في آن واحد، إلى أن وجدت مصر نفسها على دكة الاحتياط أو خارج الملعب، وهو ما حذرت منه مراكز الأبحاث مرارا وتكرارا ☐☐☐ وها هو العبث بكل البلدان الحدودية أو المجاورة، بدءا من غزة في فلسطين، مروراً بالسودان وليبيا، ثم في اليمن وسوريا، وحتى لبنان العراق، وهو الأمر الذي لا يصعب تداركه إذا كانت هناك إرادة، نتيجة ضجر الشارع العربي بشكل عام من الأحداث الجارية، أما إذا آثرت مصر التقوقع واستمرار هذا الوضع، فإن الخسارة مؤكدة على كل المستويات، السياسية والاقتصادية، ناهيك عن الأمن القومي المهدد، لتستمر أزمة البحث عن هوية بلا حل!